

فالعبرة العربية إذن كالزهرى ، إذا نقرت أحد أوتاره رنت
لديك كل الأوتار ، وخفقت وهى تبعث فى نفسك زيادة عما لها
من صدى خاص ، جميع الأصدا الخفية لكل ما ينتسب إليها من
مفردات أو يلتحق بها ، ثم تحرك فى أعماق النفس من وراء

ابن تقيية ، وقد ظهر متبسطاً منسجماً المفردات مرسلات ينظر إليه عند المولمين بفن الشعر كما ينظر إلى فتاة الأسطورة الفرنسية « ساندريون » ، فقد كانت تفوق أخواتها وأترابها جمالا وذكاء نفس ؛ إلا أن بساطة أخلاقها وتواضعها كانا يظهرانها في مظهر الفقر والخصاصة فكانت لذلك منبوذة . وقد بدا للمغمين بأشعر أن هذا النثر المتبسط المرسل في حاجة إلى زينة وحلى ، وهكذا جملوه نثراً مسجماً

ومع ذلك ، فإنه يجمل بنا ألا نشدد الحكم على النثر المسجوع فهو الذي أمد العربية بعدد من جواهرها الأدبية ، وهو الذي أكتبها آثاراً فيها من جودة الصناعة ودقة النقش ما يجعلها مثالا تطبيقياً لقاعدة الفن المطلق الخالص ، أو ما يعرف عندهم بالفن للفن ... ولا يمكن مع ذلك نكران المراقيل الخطيرة التي انجرت من هذا النثر للعبارة الصحيحة الكاملة الموفية بحسن المعنى بالقياس للنثر وجوهره . ولا يمكن أن نتفكر عما كان لهذا النثر من سوء الأثر على الأسلوب ، فلقد جرله الفقر وحمل الكتاب على الاختصار من أساليب الكتابة على إجلال القصيرة من شتات السجع ، فأفضى بعدد منهم إلى التضحية بالمعاني واللب في سبيل المناية بالشكل والأسلوب .

ولكن هذا النوع من النثر قد انقضى اليوم عصره وزال سلطانه . فلقد عادت الحرية المطلقة إلى النثر بفضل نهضة الآداب العربية التي بدأت منذ ثلاثة أرباع قرن تقريباً . وفي هذا الباب ذكر بعضهم مراراً عديدة ما للتأثيرات الأجنبية من فضل على هذه النهضة سواء من حيث الأسلوب ومن التعبير ، أو من حيث تجديد اللون الأدبي في ذاته ، واختيار المواضيع ، وهي عوامل لا يمكن نكرانها ، ولكنها لم تكن لتؤثر لو لم تصادف رغبة دنيئة في الانبعاث ، وشوقاً إلى إحياء تراث عظيم قد وقف سيرته تراث القرنين الثاني والثالث من الهجرة . ذلك أن البشر والشعوب لا يقبلون من التأثيرات والعوامل في باب المبقرة إلا ما كان ملائماً للخلاصة الخالصة من عقليتهم مسائراً لما لها من حركة وتوثب . وباختصار لا يقتبس الناس من غيرهم ولا الشعوب من بعضها إلا ما كان حياً في قرارة أنفسهم متوثباً للوجود

فليس من شك أن الملاحظ كان قبل كل شيء من رجالات الفقه الإسلامي ، فلقد انصرف فيما لا يقل عن نصف تأليفه إلى البحوث الدينية . وهل ينكر أحد أن كتاب « الحيوان » ، وهو أكبر تصانيف الملاحظ ، خاضع في جلته لشئون توحيدية ، إذ كان مصنفه يريد أن يستخلص من درس الطبيعة وبالخصوص من النظر في شؤون الحيوان ما يقوم حجة ناهضة لتأييد مذهبه الاعتزال .

ومهما يكن من الأمر ، فلا مندوحة من الاعتراف بأنه قد تكون في القرن الثالث للهجرة نثر عربي يتصف بوزارة المادة وتنوع الأسلوب ، صالح للرواية وللجدال النظري معاً ، قادر على تتبع الفكرة والالتصاق بها في كل منرجاتها ، وعلى أداء جميع دقائق المعنى . ولم تمض مائة سنة حتى زال هذا اللون من النثر العربي المتصف بانتقاء اللفظ واختياره وبانسجام عدد التفعات ، وقام مقامه النثر المسجع .

وفي الحقيقة لم يكن هذا النوع من النثر المسجوع زائراً جديداً في اللغة العربية ، بل كان عندها أسلوباً قديماً مألوفاً يرجع عهدها به إلى العصر الذي كان النثر فيه خطايا أو شفاهاً على أقل تقدير إذ كان موجهاً في الحقيقة إلى السمع لا إلى النظر .

ويظهر أن هذا اللون من النثر المسجع قد قطع ثلاثة القرون الأولى من الإسلام بحياة فترة محدودة النطاق ، فلم يكن يستعمله إلا نفر قليل من السادة ، ولا تجد له من وراء ذلك آثراً إلا السجعة أو السجعتين يضيفها مشاهير الكتاب إلى جملهم الرسالة فإذا ما حل القرن الرابع للهجرة أصبح هذا اللون من النثر هو الغالب وطنى على غيره وعم . وإذا به مستعمل في مواضيع من الأدب وأبواب لم يكن قد طرقها من قبل ، بل هو يمتد إلى ما وراء المواضيع ويفتح إلى ما أبعد من الأبواب فيصبح متصرفاً في كامل الآداب الشعرية أياً كان لونها ومهما كان غرضها سواء أكانت من آداب الخيال والقرينة ، أم من آداب التراسل ، أو من كتب الأخلاق ، أو من آداب الدواوين ، أو في المواضيع التاريخية ...

ولعل السبب في هذا التقلب القاهر راجع إلى ما كان مشهوراً في سائر الأوساط الأدبية من تفوق الشعر على النثر . وكان نثر